الاستشراق وخطاب ما بعد الكولونيالية

د. نوافل يونس الحمداني / كلية التربية للعلوم الأنسانية/ جامعة ديالى

الاستشراق والمستشرق :

يعدّ الاستشراق موضوعاً ثقافياً وحضارياً متشعباً وهو من الموضوعات الطارئة على الثقافة العربية، ولو استقصينا الدراسات السابقة لكتاب (الاستشراق) لادوارد سعيد وأجرينا مسحاً للاهتمامات العربية في المجال الثقافي لهذا الموضوع سنلاحظ شحة الدراسات التي اهتمت بالاستشراق وسطحيتها، ولكون الاستشراق باباً يفتح آفاقاً قصية نحو الحوار مع الآخر ومعرفة الحضارة الغربية وكيف تعاطت مع حضارتنا العربية في الماضي والحاضر وآثار ذلك على علاقتنا المستقبلية معها فإنّ ذلك يسهم بالتأكيد في فهم كثير من الأمور التي تتعلق بالغرب من ناحية وبذواتنا من جهة أخرى .

إنّ مفردة (استشراق) هي على وزن (استفعال) ((والسين والتاء إذا زيدتا في الكلمة قصد بها الطلب، مثل استغفر أي طلب الاستغفار واستنصح طلب النصيحة)) [1] ، ومعناها هنا يأتي في طلب علوم وثقافات الشرق ونحو ذلك ، ولعلّ مفردتي (الاستشراق) و(المستشرق) حديثتا عهد في الثقافة الغربية والعربية، ويشاع أنّ اللغة الانكليزية ((تبنتها حوالي 1779م .. واعترفت بها الأكاديمية الفرنسية 1799 وهي مشهورة بالحيطة في إدخال الكلمات الجديدة إلى اللغة الفرنسية، فأدخلتها في معجمها المشهور عام 1838م)) [2] ، ويرى بعضهم أن ((مصطلح الاستشراق له دلالتان أولاهما : أنه علم يختص بفقه اللغة ومتعلقاتها على وجه الخصوص وثانيهما أنه علم الشرق أو علم العالم الشرقي على وجه العموم، فعلى هذا الأساس يشمل كل ما يتعلق بمعارف الشرق من لغة وآداب وتاريخ وآثار وفن وفلسفة وأديان وغيرها من علوم وفنون))[3] ، وأمسى مصطلح الاستشراق أقل قبولاً عند الغربيين في العقود الأخيرة من القرن العشرين بالمقارنة بـ(الدراسة الشرقية أو الدراسات الإقليمية أو دراسات الشرق الأوسط) وذلك لسببين : الأول: كونه يتسم بالعمومية لدرجة مفرطة، والثاني: كونه يتضمن الموقف التنفيذي السلطوي للاستعمار الأوربي في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، كما يرى أدوارد سعيد [4] ، ولهذا طالبت بعض المنظمات بإلغائه لما له من دلالات تاريخية سلبية واستبداله بعبارات أخرى مثل (الدراسات الإنسانية حول الشرق) أو (دراسات الشرق الأوسط والأدنى) مما زاد في عدم مقبولية هذا المصطلح من الأوساط العلمية والثقافية الغربية وغيرها، غير أن أدوارد سعيد أعاد مجد هذا المصطلح عندما عنون كتابه بـ(الاستشراق) فأثار ضجة كبيرة في الأوساط الغربية، في حين أن المستشرق هو من طلب دراسة الشرق أي أنه ليس منه ولا فيه لا بالأصل ولا بالانتماء بمعنى أن من يقوم بهذا النشاط ليس شرقياً في الغالب [5] .

خطاب ما بعد الكولونيانية :

مفهوم الخطاب واشتغالاته :

يعدّ مفهوم الخطاب (Discours) ، مصطلحاً لسانياً حديثاً يتميز عن غيره من الكلمات كـ(النص)، و(الكلام)، و(الكتابة)، لأنه يشمل كل ذلك أحياناً، فمن الممكن أن يطلق على محتوى النثر أو الشعر أو المقالات ، أو أي شيء سواء أكان منطوقاً أم مكتوباً، فردياً كان أم جماعياً، كما يمكن أن يكون صادراً عن مؤسسة أو دولة أو فترة زمنية معينة، أو مجالاً معرفياً معيناً [6] .

وهو في الدراسات الثقافية والأدبية والنقدية والألسنية الحديثة ذو دلالات مفهومية تتجاوز المعنى اللغوي التقليدي، إذ ((على المستوى اللغوي البحت يشير مصطلح "الخطاب" في معناه إلى كل كلام تجاوز الجملة الواحدة سواء أكان مكتوباً أم ملفوظاً))[7] . أما أصول المصطلح في الثقافة العربية الإسلامية، فيرجعها الباحثون إلى علم الأصول أو علم الكلام، وهو يأتي بمعنى إفهام المستمع عبر (الكلام) المباشر، وذهب آخرون إلى أن من الممكن أن يتضمن مفهوم الخطاب، الحركة والإيحاء والإشارة، إضافة للكلام الملفوظ بقصد الإفهام [8] . غير أن الاستعمال الاصطلاحي [الحديث لهذا المفهوم] تجاوز ذلك إلى مدلول آخر أكثر تحديداً يتصل بما لاحظه الفيلسوف هـ. ب. غرايس[*] , من أن للخطاب دلالات غير ملفوظة يدركها المتحدث والسامع من دون علامة معلنة أو واضحة . ومثال على ذلك أن يقول الشخص لآخر : (ألا تزورني؟), فلا يفهم السامع من الجملة أنها سؤال , على الرغم من أن ذلك هو شكلها النحوي , وإنما يفهم أنها دعوة للزيارة. وقد اتجه البحث فيما يعرف بتحليل الخطاب إلى استنباط القواعد التي تحكم هذه الاستدلالات أو التوقعات الدلالية، وهو مما يصل هذا الحقل بحقل آخر يعرف بـ(نظرية فعل القول) ، وكذلك بالسيمياء أو علم العلامات من حيث هو أيضاً بحث في القواعد أو الأعراف التي تحكم إنتاج الدلالة [9] . فحين يتحدث الألسني عن خطاب الإعلان الدعائي مثلاً، فإنه يعني ببساطة، المعالجة الشكلية للموضوع في كل من الكلام والكتابة. غير أن الخطاب العنصري، على سبيل المثال، ينطوي على مضامين مُغايرة كلياً لذلك الملمح البسيط المتعلق بالتواصل اللفظي، حين يُعالج من لدن الفيلسوف أو عالم النفس الاجتماعي أو الناقد الثقافي أو الحضاري. فلا يُمكن في الزمن المعاصر أن يُختزل مفهوم الخطاب بمعنى واحد ومحدد، لذا بمقدور المرء تجاوز المضامين اللسانية لهذا المصطلح الرائج، والتبحر في مضامين الخطاب وأنساقه وبنياته المفهومية والأيديولوجية ، ومرتكزاته الثقافية، أياً كانت مادته وأياً كان مصدره [10] .

وأول من اهتم بمفهوم الخطاب من الغربيين هو أفلاطون، الذي حاول ضبط المفهوم داخل إطار فلسفي، وشحنه بدلالته الفلسفية، استناداً لقواعد عقلية، ومن ثم أهتم به ديكارت في كتابه (خطاب في المنهج)، وسرعان ما تزايد الاهتمام بهذا المفهوم في العصر الحديث. ونموذج ميشيل فوكو من أبرز تلك النماذج التي اهتمت بمعالجة هذا المفهوم في ميدان المعرفة العقلية التي تُعد

الموجه الأول للثقافة الغربية الحديثة [11]، ((والخطاب ميدان تختلف فيه ثنائية الكلمة والشيء، وأن كان هذا الميدان ليس حيزاً لمواجهة حاسمة بينهما، إنما هو إطار للتفاعل الجدلي. وهو ما أفضى عند فوكو إلى ظهور مفهوم (التمثيل)، الذي يمثل بؤرة الرؤية التي يصدرها فوكو حول موضوع الخطاب، وإجراءات تحليله منهجياً ومعرفياً، فركز فوكو اهتمامه على قضية جوهرية، حددت منظوره النقدي، ورؤيته المنهجية، وهي قضية تمثيل الخطاب للأشياء، وفيما كشف الإشكاليات الإجرائية للخطاب في كتابه (حفريات المعرفة)، وخصص كتابه الآخر (الكلمات والأشياء) لبيان آلية التمثيل)) [12] .

مما لا شك فيه أن لهذا كله أهميته في الدراسات النقدية، ((إذ أفاد الكثير من النقاد من تحليل الخطاب، مثلاً في دراسة الحوار الروائي، خاصةً الكيفية التي يتمكن بها المتحاورون من الاستدلال إلى معنى دون أن تكون هناك دلالات ظاهرة عليه))[13] ، وهذا النوع من التحليل قد أسس له أيضاً ووظفه إدوارد سعيد في تحليله للخطاب الاستشراقي، وكشف البنى الفكرية، والأيديولوجية الظاهرة والمضمرة داخل أنساق الخطابات الاستشراقية والكولونيالية، سواء أكان هذا الخطاب جاء على شكل أبحاث أم روايات أم مقالات صحافية أم سرديات أدبية أخرى التي تناولت الشرق بكل أبعاده كما سنرى لاحقاً .

وجاء اعتمادنا لمفهوم (الخطاب) سالف الذكر ليس اعتباطياً، أو حشواً إن صح التعبير، بل لكون أغلب نتاج رواد ما بعد الكولونيالية، وعلى رأسهم إدوارد سعيد، جاء على شكل خطاب مفهومي وإبستمولوجي مدعوم بالمعرفة والتحليل، ونظريات فلسفية، وتاريخية، وأدبية، رداً على الخطاب الاستشراقي من جهة، ومن جهة أخرى على وليده الخطاب الكولونيالي الإمبريالي، الذي كان ولا يزال يرعى المصالح الإمبريالية للدول الغربية ومؤسساتها السياسية أو بالأحرى (الاقتصادية). فكما نعرف أن المصالح السياسية هي بالمحصلة وبعد كل شيء مصالح اقتصادية. فللبوصلة الاقتصادية دورٌ مركزي في تحديد التوجهات السياسية للدول ذات الطابع الأمبراطوري التوسعي وحكوماتها، وتحديد أو انتاج (الخطابات) المناسبة لها على المستوى الداخلي والخارجي ، وخصوصاً بعد ظهور وأزدهار الرأسمالية الغربية[*]، وتنامي الحاجة لإيجاد أسواق جديدة لمنتجات العالم الرأسمالي، مما ينتج حاجة ملحة لإيجاد خطابات ثقافية تغير أنماط الاستهلاك لتلائم من ثمّ طبيعة المنتجات الغربية .

فمضامين تلك الخطابات التي تزامن ظهور أغلبها مع تنظيرات عصر التنوير والحداثة الأوروبية دعت إلى احترام (الحرية الفردية)، ضمن عقد اجتماعي ذي نزعة عقلية وإنسانية شمولية، ولكن تلك المضامين اصطدمت بممارسات الحكومات الاستعمارية مع الشعوب المستعمرة، ولهذا أمسى تطبيق تلك المضامين التي تتكلم عن احترام حقوق الإنسان، وحرية الفرد، ضمن إطار جغرافي وهو الإطار الأوروبي الذي يسكنه الإنسان الأبيض المتحضر والمدني، فلا يجوز ولا يصح

تطبيقها خارجه، فكانت تلك الشعارات لا تجد لها طريقاً للتطبيق على الأعراق الدونية والمتخلفة غير الأوروبية. فالخطاب الذي كان سائداً خارج القارة البيضاء، هو خطاب التمييز العنصري، المتعالي، خطاب العبودية، والعنف المبرر [14] ، وسوف تتوضح الصورة أكثر بشأن الخطاب الكولونيالي وكيف وظف سياسياً أو لنقل امبريالياً بعض النظريات الاستشراقية .

خطاب ما بعد الكولونيالية:

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وحصول أغلب الدول التي كانت تحت نير الاستعمار والاحتلال المباشر على استقلالها، ظلت أغلب هذه الدول تعاني من آثار هذا الاستعمار وكذلك من النفوذ المتغلغل فيها . صحيح إن جيوش الامبراطوريات الاستعمارية غادرت تلك البلاد ولكنها تركت في أغلب الأحيان من يرعون مصالحها في مستعمراتها السابقة ، ودأبت على ابتكار السبل اللازمة لبقاء نفوذها عن طريق المعاهدات والاتفاقيات السياسية والاقتصادية ، وكانت دائمة الحرص على إبقاء مستعمراتها السابقة ضعيفة وبحاجة دائمة لها لضمان دوام سيطرتها ونفوذها السياسي والاقتصادي والثقافي، ولضمان مصالحها (الامبريالية)[*]، وذلك لتكون هذه المستعمرات السابقة مورداً للمواد الاولية، او اسواقاً دائمة لمنتجاتها الصناعية . فقد استطاعت ترويض واستخدام شرائح كبيرة من الطبقة البرجوازية المحلية ، ومنحت رجالها القوة اللازمة للسيطرة والحكم، فأمسى قسم كبير منهم وبعناوين مختلفة وكلاء مخلصين للدول الاستعمارية، يدينون بالولاء لها لما يحصلون منها من امتيازات ودعم سياسي واقتصادي وحتى عسكري أحياناً حيث فتحت لهم ولاولادهم المدارس والمعاهد الحديثة والمجهزة باحدث المناهج تصاحبها سياسة تعليمية كولونيالية [*] بامتياز وليس هذا وحسب بل سعت الدول الاستعمارية لطمس الثقافات المحلية وتقاليدها وإذابتها في الثقافة الغربية في أثناء الاحتلال وبعده . وفي هذه الظروف نشأ صراع فكري ثقافي بين الثقافات الاهلية التي تسعى للاستقلال بدورها ، والثقافة الغربية الوافدة التي تحاول فرض وجودها وهيمنتها، وكل ذلك كان يحدث برعاية وتأثير خطاب كولنيالي ممنهج ومدعوم بالنتاج الاستشراقي من لدن الدول الاستعمارية، هذا الوضع القلق انتج بعد حين مجموعة من التيارات والدراسات الفكرية والنقدية مناوئة للفكر والثقافة الكولونياليين .

مفهوم ما بعد الكولونيالية:

في سبعينات القرن العشرين ظهر على الساحة السياسية العالمية مصطلح (ما بعد الكولونيالية، post colonialism)، أي ما بعد الاستعمار، وكان يستعمل ضمن النظرية السياسية في السنوات الاولى من عقد السبعينات ، وذلك لوصف المأزق الجديد الذي اخذت تتخبط فيه البلدان التي خرجت من تجارب استعمار الامبراطوريات الاوروبية، ومن ثم جلب تلك المقولة الى مجال الخطاب النقدي وإلى الدراسات الفكرية والادبية [15]. إذ ظهر في ما يسمى (ادب ما بعد الكولونيالية) او (دراسات ما بعد الكولونيالية)، في إطار نظرية جديدة سميت بـ(نظرية ما بعد

الكولونيالية)، او خطاب (ما بعد الكولونيالية)، وهو خطاب نقدي وفكري يحاول معالجة الآثار السلبية للاستعمار على الدول المستعمرة، من الجوانب الثقافية والنفسية والفكرية وحتى السياسية والتاريخية، وتحليل الخطاب الكولونيالي الممتزج بالهيمنة والتسلط والعنصرية، الذي كان دأبه الدائم السعي لإرساء الهيمنة الغربية. فهو طريقة في تغيير اساليب العامة في التفكير وفي طبيعة شعورهم ازاء الاشياء . وتغيير تصور الناس حول ذواتهم ومعاييرهم الاخلاقية، فضلاً عن تاريخهم . إذ يعمل التحول الكامل الذي احدثته الهيمنة الغربية في وعي عامة الناس على ارساء الحكم الاجنبي وتوطيده [16] . ليس هذا فحسب بل يحاول هذا الخطاب أن يفكك بنى الاستعمار المفهومة وسردياته ونصوصه الادبية ويضعها على طاولة النقد والتشريح.

لاشك إن معظم مجتمعات ما بعد الاستعمار ما تزال خاضعة، بطريقة أو بأخرى ، لصيغ ظاهرة أو غير مباشرة من السيطرة الاستعمارية الجديدة، ولم يحل الاستقلال هذه المشكلة، وكذلك فإن أغلب الفئات المهاجرة إلى بلدان المركز كما يعبر عنه ، أو بلدان الامبراطوريات السابقة ، حاولت ايجاد مساحة للعيش المشترك هناك، بعد أن أصبحت بلدانهم الاصلية، مكاناً يصعب العيش فيه بسبب السياسات الاستعمارية، ولكنها عانت من ثقافة التمييز ، القائمة على التمايزات العرقية، واللغوية والدينية . وعليه فإن حقيقة نظرية ما بعد الكولونيالية هي عملية متواصلة من المقاومة واعادة الهيكلية . إذاً لابد من التأكيد، على إن دراسات ما بعد الكولونيالية ظهرت نتيجة لهذا التفاعل ما بين الثقافة الامبريالية ورزمة متشابكة من الممارسات الثقافية المحلية (الإقليمية)، وبالنتيجة ظهرت هذه النظرية لدى الشعوب المستعمرة ، تلجأ الاخيرة إلى التعبير عن التوتر الناجم عن هذا الخليط الاشكالي والمختلف عليه، والنشط والقوي، الذي قوامه اللغة الكولونيالية والتجربة المحلية [17].

وكلمة الـ(ما بعد) في المصطلح تشير إلى (ما بعد بدء الكولنيالية) لا إلى (ما بعد نهاية الكولونيالية)، كما يتصور البعض، ذلك لأن الصراع الثقافي بين الامبريالية والمجتمعات التي تعاني الهيمنة بكل أشكالها لا يزال مستمراً إلى الوقت الحاضر . وتتعلق هذه النظرية بمدى واسع من الانشغالات الثقافية : أثر لغات الدول الامبريالية على المجتمعات المستعمرة، تأثيرات (الخطابات الكبرى) الأوروبية كالتاريخ والفلسفة ، وطبيعة سياقات التعليم الكولونيالي والروابط بين المعرفة الغربية والسلطة الكولنيالية .

وتهتم هذه النظرية بالتحديد باستجابات المستعمرين والصراع للسيطرة على التمثيل الذاتي، من خلال تخصيص اللغات المهيمنة والخطابات واشكال السرد الاخرى . (أي الحد من تمثيل الاخر بصورة سيئة وغير واقعية، وابقاء الممثل صامتاً دائماً، من خلال الرد باللغات المهيمنة ذاتها وفي مقدمتها (الانكليزية) ، والصراع على مزاعم المكان والتاريخ والجنس والعرق، والصراع لتقديم صورة عن الواقع الحقيقي لجمهور العالم [18] . وقد تم تحفيزها من خلال ازدهار الاداب المكتوبة

من لدن الشعوب المستعمرة ، كما فعل أغلب رواد هذه النظرية ومنهم إدوارد سعيد . فقد أصبحت هذه النظرية تستعمل على نحو واسع في التحليلات التاريخية، والثقافية، والاجتماعية، والادبية، كلما تطورت صلتها بهذه الفروع المعرفية . وتتميز نظرية ما بعد الكولونيالية بالشمولية والانفتاح على التيارات الفكرية والفلسفية كافة ، من ما بعد حداثية وثقافية، وتاريخية، وتفكيكية، وخطابية، مما يجعل أدواتها النقدية بالغة التنوع والشمول، بحيث تفتح آفاقاً قصية في مقاربة النصوص الأدبية المعبرة عن الأمم والثقافات الناهضة خارج الحيز الجغرافي الأورو- امريكي [19] . ويرى بعضهم أن نظرية ما بعد الكولونيالية هي ((نوع من التحليل، ينطلق من فرضية أن الاستعمار التقليدي قد انتهى، وإن مرحلة من الهيمنة- تسمى احياناً المرحلة (الامبريالية)[*] أو الكولونيالية – كما عرفها بعضهم- قد احلت وخلقت ظروفاً مختلفة تستدعي تحليلاً من نوع معين [20]. ولا تزال هذه النظرية المعنية بتحليل العلاقات بين الدول المستعمرة، والدول التي تحررت من الاستعمار ، نظرية متماسكة يهتدي بها دارسو الاداب، وينظرون من خلالها إلى تركة الافكار التي خلفها الاستعمار والتي لا تزال تتحكم في مسيرة العلاقات بين الغرب والشرق على المسرح الدولي، وأن من أهم اعمدة هذه النظرية، هو التشكيك في عدد من الأفكار الأساسية التي خلفتها التركة الاستعمارية، منها تلك التي توحي بأن الاستعمار قد أفاد البلدان التي تعرضت له على صعيد النهوض الحضاري والعلمي، ومساعدتها عبر الأخذ بيدها للوصول لأساليب الحياة الحديثة المرفهة، سياسياً واقتصادياً، واجتماعياً، حتى تلحق بركب (الحضارة) . والمقصود هنا الحضارة الغربية الحديثة تحديداً ، وكأنما تقتصر الحضارة البشرية على نسق الحياة في المجتمعات الغربية الرأسمالية وحدها، وكذلك الإيحاء بتفوق التراث الأدبي الأوروبي، وهذا موجود في مناهج دراسة الأدب المقارن في الجامعات الغربية الذي يقول بالتأثير المحتوم لما هو (متفوق) على ما هو (متخلف) وأيضاً الايحاء بتفوق الثقافة الغربية على سائر الثقافات، ودور تلك الثقافة في شرعنة الاستعمار وتسويغه، كما تعالج أموراً تتعلق بالتمييز العنصري والاستغلال بشتى أنواعه .

من بين المفاهيم التي تسلط نظرية ما بعد الكولونيالية الاضواء عليها مفهوما (التعبير الابداعي والمقاومة) ، وهما ميدانان واسعان ، تتطور فيهما دراما العلاقات الاستعمارية، واختبار هذه العلاقات بغرض الاطاحة بها . فقد أطرت النصوص الانثروبولوجية والتواريخ والنثر في الغرب ، التابع والانسان غير الأوروبي والعربي ، ضمن أُطر غربية – أوروبية . ولقد صنفت هذه الأطر غيرية الانسان إياه كرعب او نقص . وتمّ ضمن منظومة علاقات الاستعمار المركبة إعادة تسليط الضوء على التصويرات الابداعية هذه للمستعمرين – من خلال التعليم الرسمي أو العلاقات الثقافية الاستعمارية العامة- كصور صادقة عن أنفسهم . ويمكن القول بأن التصويرات الاستعمارية تسود وتنتشر في برامج التلفزة والكاريكاتير وسواها . يضاف إلى ذلك مساهمة التعليم واطر الانتاج والاستهلاك . ولقد تجلت المقاومة ضد هذه الانماط من التصوير الابداعي بطرق عدة [21] . وقد ساهم كتاب (الاستشراق) لادوارد سعيد في تأسيس أهم المرتكزات المعرفية

لهذه النظرية، وساهم كذلك في دعم أسس النقد الثقافي الذي أتى بالدراسات الثقافية الخالصة إلى ميدان النقد الادبي، وأتى إليه كذلك بنظريات النقد النسوي، وخصوصاً النظرة التي تقول بضرورة تحرير المرأة في البلدان التي تحررت من الاستعمار من الصورة النمطية التي رسخها او دأب على ترسيخها[22].

وتعد النظرية وخطابها الفكري والنقدي من تيارات ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة . وممن ساهمت اعمالهم في بلورتها ووضع أسسها وادواتها المعرفية، (فرانز فانون) صاحب كتاب (معذبو الارض) ، والمنظر الإيطالي (انطونيو غرامشي)[*] ، والمفكر الفرنسي (ميشال فوكو)[*] ، والفيلسوف الفرنسي (جاك دريدا) وغيرهم من الذين وظفت نظرياتهم ونتاجاتهم في بلورة هذه النظرية .

من الواضح إن نظرية ما بعد الكولونيالية ظهرت في المشهد الثقافي الجامعي للدول الانكلوفونية ، وخصوصاً الولايات المتحدة الاميركية، وارتبطت بجامعة كولومبيا في بادئ الامر ، فيما ارتبطت (الارسطية الجديدة)[*] في (النقد)، بجامعة شيكاغو، ودراسات (الجندر) والكتابة النسوية بجامعة انديانا . ودشن النظرية جامعيون من الأقليات المهاجرة من المجتمعات أو البلدان المستعمرة سابقاً، وفي مقدمة هؤلاء الثالوث البارز : ادوارد سعيد كما أسلفنا، والهنديان غياتري سبيفاك[*] ، وهومي بابا [*] الذين مثلوا أبرز رواد هذا التيار [23]. والجدير بالذكر بأن هذه النظرية من الاتساع والتشعب إلى الحد الذي يصعب الاحاطة بها في هذا المقام، فقد ضمت في فلكها الكثير من التيارات والتوجهات الادبية والفكرية، وأبرزها دراسات التابع والنقد النسائي ما بعد الكولونيالي ، وتيار النقاد الماركسين مثل اعجاز احمد [24] وسمير امين [25] . بل امتد أثر النظرية حتى إلى فلسطين المحتلة، بظهور تيار أو ((ظاهرة المؤرخين الجدد الذين برزوا في أواخر ثمانينات القرن العشرين، وهم حركة من المفكرين اليهود، أمثال باروخ كيمرلنغ ، وبنيامين بتلحمي، وغيرهما، ممن عاش أغلبهم خارج هذه الدولة ، لاعتبارهم إياها (ظاهرة كولونيالية) بامتياز، وصدمت كتابات هؤلاء الوعي الصهيوني بالتشكيك بالبطولات الاسرائيلية وأساطيرها . فمن الجلي إذ إنه يصعب حصر النظرية أو السيطرة عليها بسبب تشعب مفاهيمها وتعدد تياراتها)) [26].

غير إن ما تجدر ملاحظته أيضاً، إضافة على التمييز الذي يقيمه البعض بين (الكولونيالية) و(الاستعمار)، اندراج نظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي، من ناحية صلتها بالنقد الأدبي والثقافي، ضمن سياق أوسع، هو سياق (ما بعد الكولونيالية) بكل ما تنطوي عليه هذه المقولة من دلالات تدرج في إطار (العالم ما بعد الاستعماري) بكل سياقاته الثقافية والفكرية المترتبة عن الاستعمار وحركات الاستقلال التي أعقبته ... في مقابل مقولة (الاستعمار) التي لا تحيد عن سياقات الاحتلال العسكري والسياسي المباشر. على إن التمييز بين هاتين المقولتين لا يحول دون التداخل

بينهما نتيجة تواصل الاستعمار الذي هو ليس نسقاً للسيطرة العسكرية والاقتصادية فقط، وإنما هو شكل من العنف النفسي والروحي أيضاً[27].

ونظرية خطاب ما بعد الكولونيالية تشدد على (الثقافة) ودورها في الانتشار الامبريالي، وكذلك دورها وأثرها الكبير على (تشكيل المجتمعات ما بعد الكولونيالية) حتى داخل المجتمعات الامبراطورية ذاتها . فالاستعمار كان له أثر على المستعمر والمستعمر في الان نفسه [28] . ويمكن الجمع بين نظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي والفكر ما بعد الحداثي من ناحية التشكيك في ما نعته أحد آباء ما بعد الحداثة المفكر الفرنسي ((فرانسو ليوتار بـ(السرديات الكبرى) وفي مقدمتها (التنوير) التي كانت أساس ظهور أسطورة (الغرب) ذاته، وفي المنظور الذي أفضى إلى الحربين العالميتين المدمرتين، والابادات العرقية التي حصلت وتشكيل ما يسمى (العالم الثالث) ، ويمكننا أيضاً الوصل بين نظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي، والفكر ما بعد الحداثي من ناحية الالتفات إلى الجماعات المهمشة والملونين كما يطلق على الاعراق اللاأوربية، والنساء والتمييز ضدهن وشعوب العالم الثالث ، وكل ذلك في المنظور الساعي إلى محاولة زحزحة (التمركز) الغربي، فالنظرية ما بعد الكولونيالية، تعد أيضاً، حقلاً جديداً من حقول المعرفة الانسانية والادب المقارن، وتعنى أيضاً بمعطيات تمس الهوية والهجرة والاغتراب المتعدد والاهلانية (إحياء الثقافة الأهلية) والوطنية والقومية والهيمنة والمقاومة الثقافية ووضعية الأقليات وغيرها[29] .

الهوامش :

---

[1] الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، إسماعيل علي محمد، منشورات الحكمة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط3، 2000: 11 ، وينظر: المعجم الوسيط ، مادة (شرق) ، دار الدعوة ، ط2، 1989، استنبول : 480/1.

[2] فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، أحمد سمايلوفتش، دار المعارف ، القاهرة، 1980: 26.

[3] المصدر نفسه : 25.

[4] ينظر: الاستشراق، أدوارد سعيد، تعريب كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربي، بيروت، ط8، 2010: 38.

[5] ينظر: الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، محمد الجبري، مكتبة وهبة، القاهرة، 1995: 13.

[6] ينظر: الوعي المحلق، يحيى بن الوليد، أدوارد سعيد وحال العرب، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2010: 83، 121 .

[7] نظام الخطاب، ميشال فوكو، مجموعة محاضرات ولقاءات، تعريب: محمد سبيلا، نسخة الكترونية: 4.

[8] ينظر: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، عبد الله إبراهيم، دار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010م : 134-136.

[*] هـ. ب غرايس (1913-1988م)، فيلسوف لغوي إنكليزي، عمل أستاذاً للغة في جامعة أكسفورد، ومن ثم انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية وعمل في جامعة كاليفورنيا حتى وفاته .

[9] ينظر: دليل الناقد الأدبي، سعد البازعي وميجان الرويلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 2009: 155.

[10] ينظر: إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، شيلي واليا، تعريب عبد العزيز جاويد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (د. ت) : 31.

[11] ينظر: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، عبد الله إبراهيم، مصدر سابق: 136.

[12] المصدر نفسه : 137.

[13] دليل الناقد الأدبي ، مصدر سابق : 155.

[*] وهذا المعنى يشير إليه ويوضحه جلياً الاقتصادي الأميركي هاري ماجدوف، في كتابه (الأمبريالية من عصر الاستعمار حتى اليوم)، إذ يرى ماجدوف أن الأمبراطوريات الاستعمارية في بادئ الأمر كانت تفرض الجزية التي تأتي من الفائض التي تنتجه الاقتصادات المحلية للدول المستعمرة، ولهذا لم تشعر بحاجة ملحة لإيجاد تغيرات ثقافية واجتماعية في البلدان المستعمرة، ولكن الرأسمالية التي ازدهرت بشكل واضح في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وطبيعتها التوسعية فهي شيء مختلف تماماً. فالقوة الدافعة لهذا النظام الاجتماعي (الرأسمالي) هي ضرورة أن ينمو استثمار رأس المال على نطاق واسع، بحيث يحصل تراكم كبير لرأس المال على النطاق العالمي مما يؤدي إلى اجتذاب ما أمكن من مناطق العالم داخل الفلك الرأسمالي. وهذا يعني بالتالي أن انتاج واستخراج السلع الزراعية والمعدنية وتجارة الاستيراد والتصدير الخاصة بالمناطق المستعمرة والتابعة تُكيف بشكل حاسم لتلبية حاجات تراكم رأس المال في المرتكزات الرئيسية للدول الأمبريالية . ومن أجل تلبية متطلبات نمو المركز، يجري وعبر خطابات ثقافية تعديل (التركيبات الاجتماعية) للأمم التابعة بحيث تؤدي إلى التغييرات المرجوة في الانتاج والتجارة . للإطلاع ينظر: الإمبريالية من عصر الاستعمار حتى اليوم، هاري ماجدوف، مؤسسة الأبحاث العربية، بيلاوت، ط1، 1981م: 10-11.

[14] ينظر: الشرق والغرب، من الاستشراق إلى العولمة، عامر عبد زيد وآخرون، دار المعارف، مصر، 2009: 103.

(*) الامبريالية ، سياسة سلطوية تمارسها الإمبراطوريات الاستعمارية السابقة، تحاول الهيمنة على البلدان خصوصاً تلك التي كانت تقع تحت سيطرتها العسكرية المباشرة، وذلك عبر أساليب متعددة منها الهيمنة الاقتصادية، أي جعل تلك البلدان سوقاً لمنتجاتها ، أو مورداً للمواد الأولية .

(*) سياسة تعليمية كولونيالية، المقصود منها، سياسة تعليمية تحاول فرض القيم الغربية على المجتمعات الاخرى بشتى الوسائل والطرق .

(15) ينظر: الوعي المحلق، ادوارد سعيد وحال العرب، يحيى بن الوليد، رؤية للنشر والتوزيع– القاهرة 2010: 31 .

(16) ينظر: إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، شيلي واليا ، تعريب احمد خريس ، ناصر ابو الهيجاء، دار ازمنة للنشر عمان، ط1، 2007م: 37– 38 .

(17) ينظر مقال ؛ نظرية ما بعد الاستعمار في النقد الادبي محمد علي حرفوش، جريدة شرفات، تصدرها وزارة الثقافة السورية، العدد 7=http://www.shorufat.com/read.php?sid

(18) إدوارد سعيد مفارقة الهوية، بيل اشكروفت ، تعريب سهيل نجم، نينوى ، للدراسات والنشر، دمشق، ط1، 2002م : 25– 26 .

(19) نظرية ما بعد الاستعمار في النقد الأدبي ، محمد علي حرفوش مصدر سابق: (شبكة النت) .

(*) هذا التعبير الوارد في النص الأصلي وفي هذا الموضع تحديداً غير دقيق، لأن كلمة (الكولونيالية) تأخذنا لمعنى الاستعمار التقليدي الذي انتهت مرحلته، ومصطلح الامبريالية أكثر دقة هنا، والله اعلم .

(20) دليل الناقد الأدبي ، مصدر سابق، 158 .

(21) نظرية ما بعد الاستعمار في النقد الادبي، محمد حرفوش، مصدر سابق: شبكة النت .

(22) ينظر تغطية الاسلام ، ادوارد سعيد، ت: محمد عنابي: رؤية للنشر والتوزيع – القاهرة، ط1، 2005م، 11– 13 .

(*) انطونيو غرامشي (1891– 1937م) ، مفكر ماركسي ومنظر سياسي إيطالي، نقد البرجوازية والرأسمالية، وهو من أهم المفكرين الذين تكلموا على (الهيمنة الثقافية) ، من أشهر كتبه (دفاتر السجن) .

(*) ميشال فوكو ، (1926– 1984م) مفكر فرنسي ، يعتبر من أهم فلاسفة النصف الاخير من القرن العشرين ، له العديد من المؤلفات منها (نظام الخطاب) , (تاريخ الجنسانية) و(تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي) و (حفريات المعرفة) . ينظر: معجم الفلاسفة، جورج طربوش دار الطليعة ببيروت، 2006م، 469– 470 .

(*) الارسطية الجديدة، مدرسة نقدية ظهرت في جامعة شيكاغو الاميركية في ثلاثينيات القرن العشرين ، تعتمد هذه المدرسة كثيراً على مفاهيم الفيلسوف اليوناني ارسطو، وخصوصاً في الشعر والدراما المسرحية، ولكنها طورتها وأضافت عليها الكثير من المفاهيم والنظريات التي تتعلق بنقد الشعر والكتابة المسرحية . وبعد رونالد سالمون Ronald salmon (1886– 1976م) أهم مؤسسي هذه المدرسة .

(*) غياتري سبيفاك، اساتذة اكاديمية وباحثة وناقدة ادبية امريكية من أصول هندية، لها دراسات عديدة مثل: ناقد ما بعد الكولونيالية (1990م) ، ونقد العقل ما بعد الكولونيالي (1999م)، تعمل حالياً كأستاذه دائمة في جامعة كولومبيا الاميركية.

(*)هومي بابا، اكاديمي هندي، استاذ الادب الاميركي والبريطاني في جامعة هارفرد، من اعماله: امم ومرويات (1990م) وحول الخيار الثقافي (2000م) .

(23) الوعي المحلق، مصدر سابق، ص69 .

(24) إعجاز احمد أستاذ جامعي هندي، وناقد ذو توجهات اشتراكية ، وهو احد النقاد الذين انتقدوا سعيد، خصوصاً عندما عد سعيد ماركس احد المستشرقين او ممن تأثر بالفكر الاستشراقي .

(25) سمير امين ، مفكر واقتصادي مصري، ذو توجهات شيوعية، ولد في القاهرة عام 1931م، من أب مصري وأم فرنسية، درس وسكن في فرنسا، ومن ثم انتقل إلى السنغال، له كتب ومقالات عديدة، منها (الامبريالية والتنمية غير المتكافئة 1976م، الاستعمار الجديد في غرب افريقيا 1973م ، المركزية الاوروبية 1988م، ازمة المجتمع العربي 1985م) .

(26) ينظر الوعي المحلق، مصدر سابق، 94، 100 .

(27) المصدر نفسه : 30 .

(28) المصدر نفسه :30 .

(29) ينظر: ادوارد سعيد مفارقة الهوية، بيل اشكروفت، مصدر سابق: 100 .